الكتب

وحدى مع الأيام

للشاعرة الآنسة فدوى طوقان

للأستاذ كامل السوافيرى

أعتقد أنى لست بحاجة إلى أن أقدم للقراء الشاعرة الآنسة فدوى طوقان صاحبة ديوان «وحدى مع الأيام» الذى أصدرته لجنة النشر للجامعيين ، وهى الكوكب اللامع فى سماء الشعر ، والنجم الساطع فى أفق الأدب، والبلبل الصداح فى دوح العروبة الذى غنى فأشجى القلوب ، وهز النفوس

عرفت فدوى منذ فترة تزيد على عشرة أعوام مما قرأته لها من قصائد ومقطوعات على صفحات الرسالة الغراء، والأديب الزاهرة، وقد اختصتهما بطائفة كبيرة من إنتاجها الشعرى ، فهزنى شعرها ، وأطربنى غناؤها ، لا لأنه شعر نسائى ظهر فى فترة أقفر فيها الشعر الحديث منه . ولا لأن صاحبته آنسة تستحق المجاملة والتشجيع، ولكن لأنه صادر عن شعور صادق، وموهبة فطرية. وكنت أتيقن أن يوما قريبا آت تتبوأ فيه الشاعرة الناشئة مكانها فى موكب الشعر . وقد حققت الأيام ذلك وأصبحت فدوى طوقان شاعرة لا لفلسطين وحدها ؛ بل لدنيا العرب والعروبة

وليس ديوان الشاعرة إلا مجموعة من القصائد المتناثرة هنا وهناك تخيرتها الشاعرة مما نظمت وضمتها إلى بعضها ، لوجود وحدة نفسية بينها، فهناك شعر كثير لم يتضمنه الديوان ولعلها تنشره فى ديوان آخر

وأستميح صديقى الكاتب المعروف، والناقد اللامع الأستاذ أنور المعداوى العذر إذ أنوه بإشرافه الفنى على إخراج الديوان . وأنا أعلم أنه لن يرضيه هذا التنويه. ولكنه يرضى الفن والأدب، وإلى المشرف يرجع الفضل فى الحلة الأنيقة التى ظهر بها الديوان

أهدت الشاعرة الفاضلة ديوانها إلى روح شقيقها الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان الذى قصفت يد المنون غصنه الرطيب وهو ريان الصبا ، ربق الشباب، وكان للشاعرة الأخ والوالد والأستاذ، فأحدث موته فى قلبها فاجعة لم تستطع الأيام أن تسدل عليها ستار النسيان ، وشق فى فؤادها جراحا لم تندمل، وفجر فيها ينابيع الحزن والأسى، فصاغت من دموع العين ، ودماء القلب ، المراثى تزخر باللوعة ، وتفيض بالألم ، وهى فى حزنها عليه ورثائها له تلتقى بالشاعرة المخضرمة الخنساء فى بكائها على أخيها صخر ، ورثائها له ، ويبدو أن فجيعة فدوى بإبراهيم كانت فوق ما يحتمله قلبها ، فأحالت حياتها الهانئة الوادعة إلى مأتم دائم ، ودموع لا تجف وزفرات لا تنقطع، وطبعت شعرها بطابع الأسى والحزن، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائدها من الحزن الدفين ، والحرقة اللاذعة

استمع إليها فى قصيدتها « حياة » ص ٣٩ من الديوان التى مطلعها

حياتى دموع
وقلب ولوع
وشوق ، وديوان شعر ، وعود

إذ تبكى أحباءها الراحلين إلى عالم الخلود ، وتصور اللوعة على فقدهم ، فتناجى روح المرحوم والدها ، ثم تتجه إلى شقيقها إبراهيم الذى كان لها نبع حياة وحب ، وضياء العين والقلب ، وإذا رياح الموت العاتية تطفئ شعلته وتصبح الشاعرة وحيدة فى ظلام الوجود ، حائرة فى قفار اليأس ، لا نور يهديها ولا أمل يناغيها

وفى ليل سهدى
يحرك وجدى
أخ كان نبع حياة وحب
وكان الضياء لعينى وقلبى
وهبت رياح الردى العاتيه
وأطفأت الشعلة الغاليه

وأصبحت وحدى
ولا نور يهدى
أجالج حيرى بهذا الوجود

ومن قصيدة « على القبر » ص ١١٥ تناجى قبره فتحس أن للقبر إشعاعا من النور ، وأنه أجل القبور لأن دنياها فيه ، وفى قلبها مأتم دائم

آه يا قبر.. له إشعاع نور
لا أرى أجمل منه فى القبور
فيك دنياى وفى قلبى الكسير
مأتم ما انفك مذبات لديك
قائما يأخذ منه بالوتين

وهنا أقف لحظة لأسجل أن فدوى قد بلغت القمة فى هذا الفن ؛ أقصد فن الرثاء من ناحية الصدق الشعورى ؛ والصدق الفنى وأقصد به الصياغة اللفظية التى تتجلى واضحة فى شعر الشاعرة . مما يدل على تمكن من لغة عدنان ، وإحاطة بأسرار بيانها ، واستعمال مفرداتها . وللشاعرة فى رثاء أخيها شعر كثير لم يتضمنه الديوان

ونترك فدوى التى هدها الحزن . وأضناها الأسى على إبراهيم .. إلى فدوى الشاعرة الوطنية التى ترى بلادها المقدسة تخر صريعة أمام العدوان الاستعمارى الظالم — ولا أقول الاستعمار الصهيونى فنحن نعلم من يقف وراء الصهيونية — وتشاهد الكارثة المريعة تدمر بناء أمتها وتدك مجدها فتثور عاطفتها الوطنية ، وترسل صيحتها الشعرية تستصرخ أبطال المروءة وتستنهض هم العرب ليدفعوا عن فلسطين العدوان ويدرأوا عنها العدو ؛ فتقول من قصيدة « بعد الكارثة » ص ١٢٧

يا وطنى مالك يخنى على روحك معنى الموت معنى العدم
أمضك الجرح الذى خانه أسأته فى المأزق المحتدم
لا روح تستنهض من عزمهم لا نخوة تحفزهم ، لا همم

ولا يلبث الأمل أن يداعب قلب الشاعرة فتحس أن الغمرة ستنجلى ، وأن هذا الليل المظلم سيعقبه فجر مشرق ، وأن السحاب المركوم سيتبدد عن صفحة الجو ، فلا يزال فى الأمة العربية شباب أحرار من الذين يأبون الضيم ، ويحاربون الهون لن يقعدوا عن ثأرهم

ستنجلى الغمرة يا موطنى ويمسح الفجر غواشى الظلم
هو الشباب الحر ذخر الحمى اليقظ المستوفز المنتقم
ان يقعد الأحرار عن ثأرهم وفى دم الأحرار تغلى النقم

ولقد عاصرت فدوى مراحل جهاد العرب فى فلسطين ضد الاستعمار البريطانى والصهيونية الآثمة . وشهدت قوافل أبطال الحرية المتتابعة ، الذين قدموا أرواحهم رخيصة للدفاع عن أوطانهم منذ البطل المجاهد المرحوم عز الدين القسام . إلى الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ . وشهدت جبل جرزيم وعيبال يموجان بالمجاهدين من أبطال جبل النار ، فكان كل ذلك من أكبر العوامل التى جعلت من فدوى شاعرة وطنية تؤجج فى النفوس عاطفة الدفاع عن الوطن . وتضرم فيها النخوة والحمية ، وتذكر المجاهدين العرب بصفحات البطولة اللامعة التى سطرها التاريخ لأجدادهم الثائرين

وتقع الكارثة عام ١٩٤٨ وتهوى البلاد إلى حضيض الاستعباد وتهيم جيوش اللاجئين من أبناء فلسطين على وجوههم ، يبحثون عن المأوى فلا يجدون إلا المغاور والكهوف والأودية والشعاب والخيام المهلهلة التى لا ترد الحر والقر فيتخطفهم الموت زمرا لا فرادى . ويوحى هذا المنظر المريع الشعر فى قلب فدوى فتنشد من قصيدة « مع لاجئة فى العيد » ص ١٢٩

أختاه هذا العيد رق سناه فى روح الوجود
وأشاع فى قلب الحياة بشاشة الفجر السعيد
وأراك مابين الخيام قبعت تمثالا شقيا
متهالكا يطوى وراء هموده ألما عتيا
يرنو إلى اللاشئ ... منسرحا مع الأفق البعيد

وأترك هذين الفنين الشعريين من الفنون التى حلقت فيهما الشاعرة إلى الحديث عن فدوى الإنسانة التى لا تقف رسالتها الفنية عند تصوير عواطفها ، وبث آلامها وأحزانها . شأن الشعراء الذين يتحدثون عن ذواتهم ولا يحسون بإحساس أمتهم ومشاكل مجتمعهم ، لأقرر أن فدوى فنانة وإنسانة تشاطر البائسين آلامهم ، وتدعو البشرية لتجفيف دموعهم . وتنادى بالعدالة الاجتماعية حتى لا يكون فى الناس جائع ولا محروم

تقول من قصيدة « مع سنابل القمح » ص ٢٦

كم بائس ، كم جائع كم فقير   يكدح لايجنى سوى بؤسه
ومترف يلهو بدنيا الفجور   قد حصر الحياة فى كأسه

...

لم تحبس السماء رزق الفقير   لكنه فى الأرض ظلم البشر

بقى أن أقول بعد ذلك أن هناك ظاهرة واضحة تطالع النقاد فى شعر فدوى : وليست تلك الظاهرة سوى فراغ الحياة . أوسمها إن شئت الحرمان . الحرمان من العطف والحنان. الحرمان القاتل الذى جعل الحزن يرين على نفسها ، ويستحوذ على قلبها فيشعرها بأنها تحيا غريبة فى دنيا الناس . ولعل اسم ديوانها أكبر دليل على ذلك حيث أضنتها الحيرة ، واستبد بها القلق ، فرغبت عن الحياة وتمنت أن تنطلق روحها من الأرض إلى السماء .

تقول فى قصيدة « أشواق حائرة » ص ٣٢

وهناك تومئ لى السماء وبى   شوق إليها لاهف عارم
فأود لو أفنى وأدمج فى   عمق السماء ونورها الباسم

وقد كررت الشاعرة هذا المعنى فى قصائد متعددة من الديوان وقد أوحى إليها هذا القلق بالتساؤل عن حقيقة الموت . والبعث والخلود

تقول من قصيدة « خريف ومساء » ص ١٢

عجبا ما قصة البعث   وما لغز الخلود ؟
هل تعود الروح للجسم   الملقى فى اللحود ؟

وأنتقل إلى شعر الطبيعة فى ديوان فدوى لأقرر أن الشاعرة قد تغنت بجمال الطبيعة فى البيئة المحيطة بها ، والشاعرة عاشت فى مدينة عريقة فى مدينة نابلس فى فلسطين حيث يحتضن جبلا جرزيم وعيبال المدينة ، وعلى سفح الجبلين تكثر المروج التى أوحت للشاعرة بقصيدة «مع المروج» ص ٩

هذى فتاتك يامروج   فهل عرفت صدى خطاها
عادت إليك مع الربيع الحلو   يامثوى صباها
درجت على السفح الخضير   على المنابع والظلال
روحا تفتح للطبيعة   للطلاقة والجمال

وقد حلقت الشاعرة فى أجواء بعيدة ، وتناولت فنون الشعر المختلفة ، وبرهنت على أن طاقتها الشعرية متعددة النافذ تغذيها ثقافة واسعة ، واطلاع دائم

ولها فى الديوان قصائد من تجارب شعورية اجتازتها الشاعرة فكانت تعبيراً صادقاً عما يختلج فى شعاب القلب ومسارب النفس ، وتبدو هذه التجارب فى القصائد الآتية من الأعماق ، غب النوى ، إلى صورة

ولا ينحدر مستوى الشاعرة فى هذه التجارب عنه فى الرثاء والوطنيات . والتأملات والنزعات الفلسفية

وبعد فأظننى قد قدمت للقراء صورة عن ديوان الشاعرة الملهمة التى قرأوها . والتى قدمها شعرها إلى القراء خير تقديم

كامل السوافيرى

رفائيل

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى
لشاعر فرنسا الخالد
* لامرتين *

ثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد